

المؤرخ

مَجَلَّةُ تَرَاثِيَّةِ فَصْلِيَّةِ حَكْمَةِ



إيمبولس : الكاتب المصري الطوبائي

بقلم الدكتور

مُنْذِرُ الْبَكْرِ

استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة البصرة

يوكيميروس Eukemeros اليوناني الذي وصف في ٣٠٠ ق م رحلة خيالية قام بها الى المحيط الهندي^(١) . وكذلك ايمبولس Iambolus الكاتب العربي البصري الذي ألف قصة عن دولة الشمس Sun state الخيالية^(٢) .

وقد ظهر بوضوح في ثنايا هذه الاشكال الادبية الهيلينستية نوع من الالتحام بين الواقع والخيال . اذ يسجل المؤلفون في هذه الاعمال صورة عن العلاقات الاجتماعية المثالية ويعرضون فيها نظرياتهم وآراءهم عن ظهور بعض التنظيمات الاشتراكية وتطورها . وقد عرفت هذه الافكار بالاشتراكية الخيالية التي هي بمثابة طوبائية العصر الهيلينستي ، والتي اشتملت على بعض عناصر الواقعية . كما في النظريات الطوبائية الاخرى^(٣) .

- ١ -

تطورت الكتب الوصفية^(١) التي وجدت في الآداب اليونانية في العصر الهيلينستي^(٢) . واصطبغت بطابع ذي خاصية ذاتية ، نتيجة لتأثرها بهذا العصر . فأصبحت كتباً ذات نمط أدبي يمزج الخيال بالواقع . وقد انقسم كتاب هذا النوع من الادب الى قسمين :-

الاول يقوم بالبحث عن الماضي واستقصائه . اذ ألف الكاتب اليوناني هيكاتايوس الادبيريائي Hekataios von Adbera في ٣٠٠ ق م كتاباً عن تاريخ مصر ، وضع فيه لليونانيين انماط الحياة المصرية^(٣) .

والثاني يقوم بوصف لمالم تخيلي مثل

(١) هي تلك الكتب التي اهتمت بوصف القبائل المختلفة وطرق معيشتها وتقاليدها الخ Weltgeschichte. Berlin 1962. Bd. 2. 287

(٢) العصر الهيلينستي هو عصر انتشار الحضارة اليونانية في المشرق عقب فتوحات الاسكندر الاكبر . وقد اثرت هذه الحضارة في حضارة الشرق وتأثرت بها واخرجت مزيجاً من الاثنين .

(٣) a. O. S. 287

(٤) Ebenda.

(٥) راجع :

W.W. Tarn, Alexander the Great and the Unity of Mankind. 1933. PP. 9 ff (14 ff)

تجد مراجع كاملة عن طوبائية ايمبولس .

(٦) a. O. S. 288

وقد ارتحل ايمبولس في قافلته التجارية من ارض الانباط ، من مدينة الحجر الى ديدان (العلا) ثم يثرب فمكة الى صنعاء في اليمن (١٤) . وقبل وصوله الى هدفه باغته قطاع الطرق (١٥) واستولوا على قافلته (١٦) وأصبح أسيراً تناقله أسياد متعددون حتى وصل الحبشة . ومن المحتمل أن يكون الهجوم الثاني على قافلته التجارية قد حدث في طريق البخور قريباً من الساحل المقابل لارتيريا (١٧) وقد كان لحياة العبودية تأثير كبير على آرائه ، إذ اطلع على حياة العبيد وما كانوا يقاسون على أيدي أسيادهم . كما تعرف على العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ودور أصحاب الاموال التجارية الذين يستأجرون العمال ، وشبه الاقطاع السائد في الاراضي الخصبة في شبه الجزيرة العربية (١٨) وحال الفلاحين ودور

أقدم العصور الى نهاية العصر الروماني .
(مجلة المريد) العدد الرابع . بصرة ١٩٧٠
ص ٤٩-٥١ .

(١٤) F. Altheim — R. Stiehl. a.O.S. 84
(١٥) ربما كان قطاع الطرق فريقاً من الصعاليك الذين ظلمهم مجتمعهم وحرّمهم من المدالة الاجتماعية التي يطمح اليها كل فرد في مجتمعه . لذلك لم يجدوا امامهم من وسيلة يرضون بها لانفسهم الا الاعتماد على القوة ، يفتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب فتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شحاب الجزيرة العربية ينهبون ويسلبون . (راجع الدكتور يوسف خليف . الشراء الصعاليك في العصر الجاهلي ط . الثانية القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٧ وما بعدها) . هذه الفئة الاجتماعية كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية قبل ان يحفظ لنا الشعر الجاهلي صورة عن نمط حياتها ونمطاً من اخبارها . ومن المحتمل ان يكون ايمبولس قد تعرف على هذه الفئة وعلى اسلوب حياتها وما تقاسيه .

(١٦) F. Altheim — R. Stiehl. a.O.S. 84
(١٧) Ebenda.

(١٨) حول هذا الموضوع راجع :

J. Ryckmans. L'institution Monarchique en Arabie Méridionale avant L'islam, Louvain, 1951.

وايمبولس (٧) كاتب عربي نبطي (٨) عاش في النصف الاول من القرن الثاني ق م (٩) . تأثر بالثقافة اليونانية (١٠) . ويقال انه سعى لاكتساب هذه الثقافة منذ طفولته (١١) .

ويخبرنا ايمبولس نفسه بأن والده كان تاجراً (١٢) . وقد امتنعت التجارة بعد وفاته ، وهيات له هذه المهنة الاطلاع على جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية حتى وصل الى ارض البخور (بلاد اليمن) . وكان طبيعياً أن يسلك في تجارته مع جنوب شبه الجزيرة العربية طريق البخور الشهير الذي يربط أهم مدن اليمن ببلاد الانباط ثم بموانئ البحر الابيض المتوسط (١٣) .

(٧) ان اسم ايمبولس اسم سامي من دون شك . وللتفصيل اكثر راجع :

F. Altheim — R. Stiehl. Die Araber in der alten Welt Berlin. 1964. Bd. 1. S:83

ولا بد ان يكون اسمه عربياً ولكن الاداب اليونانية اعطته اسمه هذا ، كما اعطت اوربا في العصور الوسطى اسم Avicenna لابن سينا و Averroes لابن رشد وهكذا . (٨) وهنا نقصد انه من مملكة الانباط العربية التي ازدهرت بين القرن الرابع ق م . وبين سنة ١٠٦ م وهي السنة التي ضمتها فيها روما الى الامبراطورية الرومانية وسمتها المقاطعة العربية .

(٩) ف . التهامي - ر . شتيل . دراستي التاريخ السياسي والفكري للعرب قبل الاسلام . ترجمة الدكتور منذر البكر (مجلة الفكر الحي) العدد الثاني - بصرة ١٩٦٩ ص ٩٢ .

(١٠) F. Altheim — R. Stiehl. a.O.S. 84
(١١) Ebenda

(١٢) F. Altheim. Weltgeschichte Asiens im griechischen Zeitalter. Haale/Saale. 1948. Bd. 2. S. 156.

(١٣) ويبدأ هذا الطريق من ميناء (موزع) وهو أقدم نفور اليمن الى مدينة مأرب فمدينة معين فمدينة نجران وكلها في اليمن ثم الى تبالة فالطائف فمكة فيثرب فديدان (العلا) فالحجر (مدائن صالح) فواحة تيماء ثم وادي سرحان الى البتراء ومنها اما الى بصرى فدمشق فتدمر او غزة فمصر . راجع الدكتور منذر البكر . العرب والتجارة الدولية منذ

بالمحار البحري الأرجواني • والبحر الذي يحيط بالجزر ذو مياه حلوة عذبة ويبعد الإنسان في هذه الجزر إلى الشمس وإلى القمر (٢٣) •

ان الإنسان في هذه الجزر لا يعرف الأمراض ويعيش طويلاً حتى يبلغ ١٥٠ سنة • وبمدها يفادر الحياة اختياراً ، حيث يدفن في قبر على الساحل وبذلك يجرف طوفان البحر هذه القبور (٢٤) •

اما أبجدية الكتابة في هذه الجزر فتكون من سبعة أحرف ، وعندما يحتاج الإنسان إلى أكثر من ذلك ، فما عليه إلا تغيير مواضع الحروف ليبر عن الشيء الذي يحتاجه • والكتابة تكون من فوق إلى أسفل • ولربما كان الإنسان يستطيع التكلم بأية لغة هو في حاجة إليها (٢٥) •

اما الاطفال فيجب عليهم اداء امتحان في تجربة الشجاعة ، وعندما ينجحون في هذه التجربة تبدأ تربيتهم إلى آخره (٢٦) •

ان الأساس في انشاء وتطوير هذه الدولة Sun state هو العمل المشترك والملكية المشتركة • اذ ترفع في هذه الدولة الملكيات الفردية والعائلة الواحدة • حتى ان ملكية النساء والاطفال مشتركة ايضاً (٢٧) •

لعلنا ندرك بصورة واضحة تحمس ايمبولس لقصته عن الحياة السعيدة لسكان جزره الخيالية • وذلك لعدم قناعته بالنظم الاجتماعية السائدة في عصره • اذ ان صفة عصره هي العداء العنيف بين طبقات المجتمع المختلفة والتكالب على جمع الثروة بأي طريقة ثم الصراع المرير حول السلطة •

وعلى وجه التأكيد فإن قصة ايمبولس كان لها تداول واسع في العصر الهيلينستي (٢٨) • بما حوته

المرايين في هذا المجتمع التجاري (١٩) • وقد عالج ايمبولس هذه التناقضات الاجتماعية معالجة طوباوية في قصته الشهيرة (دولة الشمس) التي جاءت معبرة عن آمال الطبقات الفقيرة ومطامحها •

- ٣ -

لقد صور ايمبولس في قصته بصورة حية المثال الاعلى لكيان مجتمع طوباوي مسالم في علاقاته الاجتماعية (٢٠) • من توزيع العمل إلى ملكية الاراضي ووسائل الانتاج البسيطة • اذ وصف مجتمعاً يعيش في جزر خرافية ذات مناخ مدهش • الليل والنهار فيها متساويان في الطول ، وهي ذات طقس معتدل • وهذه الجزر تملك وفرة الكنوز الطبيعية •

وقد نظمت الحياة في هذه الجزر بأسلوب سهل غير معقد خال من العداء بين أفراد سكانها (٢١) • كما لا يوجد بينهم صراع حول ملكية الارض أو وسائل الانتاج أو توزيع العمل • وانما يعيشون كمائلة واحدة • والمجيب في هذه الجزر ان الطبيعة نفسها هي التي تجهزها بالغذاء • حتى ان (الرغيف المحلي) ينمو في الاشجار • ولتخصيره لا يحتاج الإنسان إلا إلى جهد بسيط ومحدود • والماء الساخن والبارد متوفر لحاجة الإنسان يأخذه من الناياب (٢٢) •

والطعام مشاع بما فيه الكفاية للناس • كما يوجد اللحم والسمك والفواكه بوفرة • حتى أن تعاين هذه الجزر ليست خطيرة بل على العكس فإنها صالحة للأكل •

أما الملابس فتصنع من ألياف النباتات وتصبغ

(١٩) بقي الربا معروفاً إلى ظهور الإسلام وقد حرّمته الآيات الكريمة (سورة البقرة . الآية ٢٧٥-٢٧٩ وسورة آل عمران . الآية ١٣٠ وسورة النساء الآية ١٦١ وسورة الروم الآية ٣٩) •

كما وصف لنا القرآن الكريم طبيعة العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية •

Weltgeschichte. Bd. 2, S. 288 (٢٠)

Ebenda. (٢١)

F. Altheim — R. Stiehl. a.O.S. 88 (٢٢)

Ebenda. S. 89 (٢٣)

Ebenda. (٢٤)

Ebenda. (٢٦) Ebenda. (٢٥)

Weltgeschichte. Bd. 2, S. 288 (٢٧)

M. Rostovtzeff. The Social and Economic History of the Hellenistic World. (٢٨)

Oxford. 1967. Vol. 2 P. 808

هذه القصة من انتقادات لذلك العصر القديم . وهذه الانتقادات ، هي الجانب الثوري للاشتراكية الطوبائية، التي كانت بالتأكيد هي التعبير عن نضال عامة الناس المضطهدين في ذلك العصر .

- ٤ -

ونحن نجد تأثير قصة ايمبولس الطوبائية التي تناول فيها وصفاً لدولة الشمس فيما بعد في كل ثورة أو حركة تمرد اجتماعية مثل الانتفاضة الكبرى التي ظهرت في آسيا الصغرى للعبيد والفقراء الاحرار تحت قيادة ارستونيكوس Aristonikos الابن غير الشرعي لاويمنس الثاني ملك برجمون (١٩٧-١٦٠/١٥٩ ق م) .

ان نضال العبيد من أجل الحرية والفلاحين من أجل الارض اتحدت مع نضال شعب برجمون (٢٩) Pergamon ضد السيطرة الرومانية ، التي تعتمد على الحكام الصغار المحليين والقطاعيين والتجار والمرايين (٣٠) . وقد قاد ارستونيكوس بنجاح هذه الانتفاضة ضد الرومان واتباعهم في ١٣٢ الى ١٣٠ ق م . وحارب الرومان ، بمرارة ، انتفاضة العبيد ، لمدة ثلاث سنوات . وقد فشل ارستونيكوس آخر الامر أي في سنة ١٢٩ ق م في الصمود امام الجيش الروماني . وتم للرومان القضاء على هذه الانتفاضة (٣١) .

وتجربنا المصادر التاريخية ان ارستونيكوس

(٢٩) مستعمرة يونانية قديمة في آسيا الصغرى . وتسمى الآن Pergama وفي العصر الهلينستي أصبحت هذه المدينة عاصمة لدولة تحمل اسم المدينة نفسها (٢٨٣ ق م) راجع :

E. Rohde; Pergamon. Berlin. 1961. S. 5-31. (٣٠) Weltgeschichte. Bd. 2. S. 358 (٣١) ربما لم تكن الظروف الموضوعية مؤاتية لهذه الانتفاضة وغيرها من انتفاضات العبيد في العصور القديمة . راجع :

Max Dieckhoff; Über Krieg und Frieden im griechisch-römischen Altertum (Das Altertum) Bd. 12. 1966. H.I.S. 17 — 28

اجتهد لتأسيس دولة الشمس . واطلق على اتباعه اسم (مواطني دولة الشمس) . ومن المحتمل انه أخذ هذه الافكار من قصة ايمبولس . ويذكر رستوفتزف ان ارستونيكوس كان مستوحياً لاغراضه الاعلامية بما يقرب من الفلسفة الاجتماعية والنظريات السياسية التي نبتت في طوبائية مملكة الشمس لايمبولس . كما ان طوبائية ايمبولس ليست فلسفة سفسطائية (٣٢) .

وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي اقتبس الفيلسوف الايطالي توماس كامبانلا (٣٣) Thomas Campanella مادة تلك القصة وكتب قصته الاجتماعية حول دولة الشمس (٣٤) . التي صور فيها مجتمعاً طوبائياً مثالياً تلقى فيه الملكيات الفردية وكيان العائلة الخاصة .

من هذا نجد انه يجب على المؤرخين المحدثين اعادة تقسيم الأدب العربي قبل الاسلام . بما حواه في لهجاته المختلفة من نصوص وقصص كان لها تأثير بالغ على الآداب في العالم القديم والحديث (٣٥) . لان الاقتصار على الشعر الجاهلي الذي جانا لا يعطي الا جانباً من صورة الأدب العربي الكاملة .

(٣٢) M. Rostovtzeff. a.O.S. 808 (٣٣) فيلسوف ايطالي ولد في ١٥٦٨-٩-٥ ومات في باريس في ١٦٣٩-٥-٢٢ م .

وهو في الاصل من الدومنيك . وقد ساهم في النضال ضد الحكم الاسباني الاجنبي . وعند فشل ثورة الشعب سنة ١٥٩٩ . حكم عليه بالسجن ٢٧ سنة .

(٣٤) التهامي - شتيل - دراسة في التاريخ السياسي والفكري للعرب قبل الاسلام ص ٩٣ والهامش ٦١ ص ١٢١ .

(٣٥) ومن الامثلة على ذلك الكاتب القصصي Heliodor من اهل حمص . وصاحب القصة المشهورة (مغامرات اثيوبية) التي كان لها تأثير كبير على القصص الحديثة .

راجع :

F. Altheim — R. Stiehl. Die Araber in der alten Welt. Berlin. 1966. Bd. 3.S. 136 — 197.